الفصل الأول

أكاديمية الفضاء

كانت الشمس قد ارتفعت فوق البحر المتوسط بقليل عندما بدأت الأجراس الإلكترونية في أكاديمية الفضاء بمرسى مطروح تدوّي بصوتها المعدني الهادئ. لم يكن الصوت عاليًا، لكنه كان كافيًا ليوقظ حتى أثقل النائمين في المهجع الشرقي.

فتح سمير وجدي عينيه ببطء. لم يكن بحاجة إلى المنبه. كان يستيقظ قبل الأجراس منذ أشهر، كأنه يسابق الزمن نفسه. تمدد على السرير الضيق، وحدّق في السقف الأبيض الناصع الذي يعكس ضوء الصباح الخافت القادم من النافذة الضيقة. خارج النافذة امتد الشاطئ الرملي الأبيض، وخلفه البحر الذي يبدو في هذه الساعة كقطعة زجاج زرقاء لا نهاية لها.

نهض. ارتدى الزي التدريبي الرمادي الداكن بسرعة وإتقان، وربط الحزام حول وسطه، ثم وقف أمام المرآة الصغيرة فوق المغسلة. نظر إلى وجهه للحظة: عينان سوداوان حادتان، فك مربع، وشعر أسود مقصوص قصيرًا بشدة. لم يبتسم. لم يكن بحاجة إلى الابتسام.

في الممر كان الطلبة الآخرون لا يزالون يتثاءبون ويتبادلون أحاديث صباحية متكسرة. مرّ سمير بينهم دون أن ينظر إلى أحد. كان يعرف أنهم يراقبونه من طرف العين. الجميع كانوا يفعلون ذلك.

في قاعة الطعام وجد ماجد لطفي جالسًا بالفعل أمام صينية فارغة تقريبًا. رفع ماجد رأسه عندما رآه، وابتسم ابتسامة متعبة.

— صباح الخير يا بطل.

جلس سمير مقابله دون أن يرد على الفور. تناول قطعة خبز محمّص وبدأ يأكل بصمت.

قال ماجد وهو يحرّك الشاي في كوبه:

— سمعت أن المدرب حسن سيجعلنا اليوم نطير بتشكيلات معقدة. يقولون إنه يريد أن يرى من يستطيع الحفاظ على المسافات تحت الضغط.

ابتسم سمير ابتسامة قصيرة باردة.

— سأجعله يرى.

ضحك ماجد ضحكة خافتة، لكنه لم يعلق. كان يعرف سمير جيدًا بما يكفي ليفهم أن الكلام الزائد لا يفيد.

بعد دقائق انضم إليهما شاكر حسني. كان شعره لا يزال مبللاً، ووجهه يحمل آثار نوم غير كافٍ. رمى صينيته على الطاولة بشيء من الضجيج وجلس.

— اللعنة على هذه الأجراس. أحلم كل ليلة أنني أسقط من ارتفاع ألف متر وأن الأجنحة لا تفتح.

نظر إليه سمير من فوق كوب الحليب.

— ربما لأنك تطير كأنك تخاف من السقوط أصلاً.

صمت شاكر لحظة، ثم هز رأسه مبتسمًا ابتسامة مُرّة.

— وأنت تطير كأنك تتمنى أن تسقط فقط لتثبت أنك تستطيع النهوض.

لم يرد سمير. أنهى طعامه بسرعة، وقف، وتركهما دون كلمة وداع.

قصر الرياضة كان أكبر مبنى في الأكاديمية بعد المبنى الرئيسي. سقفه المرتفع يكاد يلمس السماء، وجدرانه الشفافة جزئيًا تسمح بدخول ضوء النهار الطبيعي. في الوسط امتدت ساحة الطيران الواسعة المبطنة بمادة ناعمة ماصة للصدمات. وعلى الجوانب كانت المنصات المرتفعة التي يقف عليها المدربون والمراقبون.

لكن ما كان يلفت النظر أكثر من أي شيء آخر هو الحشرات.

اثنتا عشرة نحلة عملاقة، كل واحدة بطول خمسة أمتار تقريبًا، كانت تقف في أماكنها المخصصة على الجانب الغربي من القاعة. أجسادها اللامعة بألوان مختلفة: حمراء، زرقاء، خضراء، صفراء باهتة. أجنحتها المطوية بدت كشفرات عملاقة شفافة. وعيونها المركّبة السوداء كانت تتحرك ببطء، تراقب كل حركة في القاعة.

سمير توقف أمام النحلة الحمراء. كانت أكبرهن قليلاً، وأكثرهن لمعانًا. مدّ يده ولمس الجانب الصلب من صدرها. شعرت بأطراف أصابعه بالاهتزاز الخفيف الذي يصدر دائمًا من داخل جسدها، كأنها محرك حيّ لا يتوقف.

همس بصوت لا يكاد يُسمع:

— اليوم سنُريهم من جديد.

لم تتحرك النحلة. لكنها حرّكت أحد قرني الاستشعار ببطء شديد، كأنما تسمع.

من خلفه جاء صوت المدرب حسن، الرجل الطويل النحيل ذو الصوت الأجش:

— الطلبة الجدد إلى المنصة الأولى. المتقدمون إلى المنصة الثانية. سمير وجدي... أنت اليوم تقود التشكيل الأحمر.

ابتسم سمير هذه المرة. ابتسامة حقيقية، لكنها لم تصل إلى عينيه.

صعد إلى السرج المثبت على ظهر النحلة الحمراء بحركة سلسة متقنة. ربط اللجام، ثبت قدميه في الركاب، وأمسك بالمناخس الإبرية بيده اليمنى. شعر بجسد الحشرة يهتز تحتة، كأنما تستعد.

حوله كان ماجد يصعد على نحلته الزرقاء، وشاكر على الخضراء. تبادل الثلاثة نظرات سريعة. ماجد بدا قلقًا. شاكر بدا متوترًا. أما سمير فكان هادئًا تمامًا.

رفع المدرب يده.

— استعدوا...

انتظر ثانية واحدة فقط.

— انطلقوا!

وخز سمير النحلة الحمراء بخفة محسوبة. ارتفعت الأجنحة العملاقة فجأة، وأحدثت صوتًا عميقًا كالرعد البعيد، ثم اندفعت الحشرة إلى الأعلى بقوة هائلة.

في تلك اللحظة، وأنا أرتفع مع الريح الاصطناعية داخل القاعة، شعرت سمير — كما كان يشعر دائمًا — أن العالم كله أصبح صغيرًا تحته. وأن لا أحد يستطيع أن يلحق به.

ولا حتى السماء نفسها.

الفصل الثاني

النحلة الحمراء

ارتفعت النحلة الحمراء في الهواء داخل قصر الرياضة كسهم ناري. الأجنحة العملاقة تضرب الهواء بصوت عميق متتابع، والجسد الطويل اللامع يميل قليلاً إلى اليمين ثم يستقيم بسرعة مذهلة. شعر سمير بالضغط على صدره، وبالريح الاصطناعية تضرب وجهه، فابتسم.

تحتة مباشرة كانت الساحة تبدو صغيرة فجأة. الطلبة الآخرون ما زالوا يرتفعون ببطء أكبر، يحاولون الحفاظ على التشكيل. ماجد على نحلته الزرقاء كان يقترب من الجهة اليسرى، وشاكر على الخضراء يحاول اللحاق من الخلف. أما سمير فقد سبقهم جميعًا في أقل من عشر ثوانٍ.

وخز النحلة مرة أخرى، أقوى هذه المرة. استجابت فورًا، واندفعت إلى الأمام بسرعة أكبر، ثم دارت دورة كاملة في الهواء قبل أن تستقر مجددًا في مسار مستقيم. صفق أحد المراقبين على المنصة العليا، لكن سمير لم ينظر.

في داخله كان يعطيها اسمًا.

«قرمزي».

لم يقل الاسم بصوت عالٍ أبدًا. لم يكن يحتاج إلى ذلك. كان الاسم خاصًا به وحده، كأنه يمتلكها تمامًا.

هبط قليلاً ليقترب من مستوى ماجد، ثم رفع يده في إشارة سريعة. فهم ماجد الإشارة وحاول الاقتراب أكثر لتشكيل مثلث مع شاكر. لكن سمير لم ينتظر. اندفع فجأة إلى الأعلى مرة أخرى، تاركًا الاثنين خلفه، ثم انقضّ في قوس حاد نحو الأرض قبل أن يرتفع مجددًا في اللحظة الأخيرة.

سمع صوت المدرب حسن عبر السماعات الصغيرة المثبتة في خوذته:

— وجدي! التشكيل! التزم بالخطة!

ابتسم سمير دون أن يرد. وخز النحلة مرة ثالثة، أقسى هذه المرة، ودفعها إلى دوران حلزوني سريع كاد يجعل رؤيته تتلاشى للحظة. شعر بجسد الحشرة يرتجف تحته. كان الارتجاف خفيفًا، لكنه موجود.

للحظة قصيرة جدًا، بدا له أن النحلة تقاوم.

لكنه ضغط بالمناخس بقوة أكبر، فاستجابت مجددًا، وانطلقت كالرصاصة نحو الجانب الآخر من القاعة.

من داخل الجسد الطويل الأحمر، كان العالم مختلفًا تمامًا.

الاهتزازات تصل إلى كل خلية. الهواء الذي يضرب الأجنحة ليس مجرد هواء، بل موجات كثيفة من الضغط والحرارة والروائح. رائحة العرق البشري، ورائحة المعدن في السروج، ورائحة الرحيق البعيدة القادمة من الأحواض في الجهة الغربية.

والألم.

الألم كان موجودًا دائمًا الآن. نقاط حادة صغيرة في الجانبين حيث تغرس المناخس الإبرية جلدها السميك. لم يكن ألمًا قاتلاً، لكنه كان مستمرًا، ومتكررًا، ومتعمّدًا.

شيء ما في أعماق الجهاز العصبي بدأ يسجّل.

ليس كلمات. ليس أفكارًا واضحة. بل أنماط.

النبضة الحادة... ثم الاندفاع... ثم النبضة الأقوى... ثم الدوران القاسي.

ورائحة الرجل الذي يجلس فوقها. رائحة مختلفة عن الآخرين. أكثر حدة. أقل خوفًا. وأكثر... إصرارًا على السيطرة.

حرّكت إحدى عينيها المركبتين قليلاً إلى الخلف، ورأت جزءًا من حذاء سمير الأسود اللامع وهو يضغط على الركاب. ثم أعادت العين إلى الأمام. الجدار الزجاجي البعيد يقترب بسرعة.

فجأة جاء أمر جديد من الأعلى. وخزة حادة في الجهة اليمنى. استدارت. ثم وخزة أخرى أقوى. ارتفعت. ثم سلسلة سريعة من الوخزات جعلتها تدور حول نفسها ثلاث مرات متتالية بسرعة جنونية.

الشيء الذي كان يسجّل في أعماقها سجّل هذه المرة شيئًا إضافيًا.

الألم... والرفض.

لكنها نفّذت الأمر. لأنها ما زالت حتى الآن تنفّذ.

عندما انتهت الجولة الأولى، هبطت النحلة الحمراء على المنصة المخصصة لها بهدوء نسبي. قفز سمير من على ظهرها بخفة، وربت على جانب رأسها بقوة أكبر مما يلزم.

— جيدة اليوم — قال بصوت عالٍ بما يكفي ليسمعه الآخرون. — لكنك ما زلت تحتاجين إلى مزيد من الطاعة.

ابتعد بضع خطوات، ثم التفت إلى ماجد الذي كان ينزل من نحلته الزرقاء بوجه شاحب قليلاً.

— رأيت كيف سبقتكم جميعًا؟

هز ماجد رأسه وهو يزيل الخوذة.

— رأيت. ورأيت أيضًا كيف كدت تصطدم بالجدار مرتين.

ضحك سمير.

— الخطر جزء من الطيران، يا ماجد. من لا يخاطر لا يرتفع.

اقترب شاكر وهو يمسح العرق عن جبينه.

— في يوم من الأيام ستؤذي واحدة منهن بشدة، سمير. وهذه المخلوقات... ليست آلات.

نظر إليه سمير بنظرة باردة.

— هي بالضبط آلات. آلات حية صنعناها نحن. وكل ما تفهمه هو القوة.

ثم التفت مجددًا إلى النحلة الحمراء التي كانت لا تزال واقفة في مكانها، تحرّك قرني الاستشعار ببطء.

ابتسم سمير ابتسامة صغيرة خاصة، وهمس هذه المرة بحيث لا يسمعه أحد:

— أليس كذلك... قرمزي؟

النحلة لم تتحرك.

لكن في أعماق جسدها الطويل، استمر الشيء الذي بدأ يسجّل في التسجيل.

الفصل الثالث

قواعد اللعبة

في المساء نفسه، بعد انتهاء التدريبات، تجمّع معظم الطلبة المتقدمين في القاعة الجانبية الصغيرة المجاورة للمكتبة. كانت القاعة تُستخدم عادةً للمراجعات النظرية، لكنها تحولت منذ أشهر إلى مكان غير رسمي للأحاديث التي لا تقال أمام المدربين.

جلس ماجد على حافة الطاولة الطويلة، وشاكر يتكئ على الجدار قرب النافذة، وثلاثة آخرون يجلسون على الكراسي المتفرقة. سمير دخل أخيرًا، متأخرًا كعادته، وأغلق الباب خلفه دون أن يعتذر.

قال أحد الطلبة، ويدعى كريم، وهو يحرّك فنجان القهوة أمامه:

— سمعت اليوم المدرب حسن يتحدث مع أحد المسؤولين من القاهرة. يقولون إن الميزانية الخاصة بمشروع الحشرات قد تُخفض العام القادم.

ضحك شاكر ضحكة قصيرة مُرّة.

— يخفضونها؟ بعد كل هذا؟ هذه الحشرات هي أرخص وسيلة تدريب اخترعوها منذ خمسين سنة. أرخص من أي محاكي طيران، وأرخص من أي مركبة تدريبية.

رفع ماجد رأسه.

— هل تعرفون أصل الفكرة أصلاً؟

نظر إليه الجميع. حتى سمير توقف عن الاتكاء على الجدار وأدار وجهه نحوهم.

بدأ ماجد يتحدث بصوت هادئ، كأنه يروي قصة قديمة حفظها عن ظهر قلب:

— في سنة ٢١٤٧، بعد أن انقرض معظم أنواع النحل الطبيعي بسبب الانهيار البيئي في القرن الحادي والعشرين، بدأ مختبر الهندسة الوراثية الملحق بالأكاديمية تجارب إعادة الخلق. لم يكونوا يريدون نحلًا عاديًا. كانوا يريدون كائنات تستطيع حمل إنسان بالغ والتحليق به لساعات. استخدموا مزيجًا من هرمونات النمو المركّزة، وكميات محسوبة بدقة من نظائر الراديوم المنشطة، وزرعوا مورثات مستخرجة من حشرات قديمة أكبر حجمًا. النتيجة... ما ترونه كل يوم.

صمت الجميع لحظة.

قال كريم وهو يفرك ذقنه:

— إذن هي مصنوعة. آلات بيولوجية.

هز شاكر رأسه ببطء.

— ليست آلات تمامًا. هل رأيتم كيف ترتجف عندما تُوخز بقوة؟ هل رأيتم كيف ترفض أحيانًا الأوامر في اللحظات الأولى؟ الآلات لا ترتجف.

ابتسم سمير ابتسامة جانبية باردة.

— ترتجف لأنها لم تُدرَّب جيدًا بعد. كل مقاومة هي مجرد خلل في البرمجة البيولوجية. نحن نصلحها بالقوة.

نظر إليه ماجد نظرة طويلة.

— وأحيانًا أفكر أن القوة ليست الحل الوحيد.

قبل أن يرد سمير، فُتح الباب.

دخلت امرأة في أوائل الثلاثينيات، ترتدي المعطف الأبيض الخاص بمختبر الهندسة الوراثية. كان شعرها الأسود مربوطًا للخلف بإحكام، وعيناها الذكيتان تمسحان القاعة بسرعة قبل أن تستقر على المجموعة.

كانت الدكتورة ليلى عبد الرحمن، إحدى الباحثات الرئيسيات في المشروع، ونادرًا ما كانت تظهر في أماكن الطلبة خارج ساعات المحاضرات الرسمية.

قالت بصوت هادئ واضح:

— سمعت أصواتكم من الممر. هل تسمحون لي بالجلوس؟

لم يعترض أحد. جلست على الكرسي الفارغ قرب النافذة، ووضعت ملفًا رقيقًا على الطاولة أمامها.

قال شاكر بحذر:

— كنا نتحدث عن أصل الحشرات، دكتورة.

أومأت ليلى برأسها.

— أصلها... نعم. الفكرة كانت جميلة في البداية. تدريب رخيص، واقعي، وفعّال لرواد الفضاء المستقبليين. لكن النتائج الجانبية لم تكن في الحسبان.

نظر إليها سمير باهتمام حقيقي لأول مرة.

— أي نتائج جانبية؟

حدّقت ليلى فيه لحظة، ثم قالت ببطء:

— الذكاء. أو ما يشبه الذكاء. نحن نتحكم في الحجم والعضلات وتحمل الجاذبية... لكن الجهاز العصبي يتطور بطريقته الخاصة. في الأشهر الأخيرة لاحظنا أنماطًا متكررة في سلوك بعض الأفراد. ذاكرة أطول مما يجب. استجابات جماعية غير مبرمجة. وكأن شيئًا ما... يتعلم.

صمتت القاعة.

ضحك سمير ضحكة قصيرة غير مصدقة.

— تتعلم؟ هذه مبالغة يا دكتورة. نحن نراها كل يوم. هي تستجيب للألم والمكافأة فقط.

ابتسمت ليلى ابتسامة حزينة صغيرة.

— الألم والمكافأة هما أول دروس أي كائن يتعلم، يا سمير وجدي. والسؤال الحقيقي ليس هل تتعلم... بل ماذا ستفعل بما تتعلمه عندما تكبر الذاكرة أكثر مما خططنا له.

نهضت، والتقطت ملفها.

— أنصحكم جميعًا أن تتذكروا شيئًا واحدًا: نحن لم نصنع آلات. صنعنا كائنات حية، ثم وضعناها تحت سيطرتنا. والتاريخ يعلمنا أن السيطرة المطلقة... نادرًا ما تدوم إلى الأبد.

خرجت وأغلقت الباب بهدوء خلفها.

بقي الصمت ثقيلاً في القاعة لعدة ثوانٍ.

ثم قال سمير بصوت منخفض، وهو ينظر إلى الباب الذي خرجت منه:

— كلام شاعري جميل. لكن في ساحة الطيران، من يملك المناخس... هو من يقرر القواعد.

نظر إليه ماجد دون أن يبتسم هذه المرة.

— إلى متى يا سمير؟

لم يرد سمير. خرج من القاعة تاركًا السؤال معلقًا في الهواء، كأنه لم يسمعه أصلاً.

لكن في مكان ما داخل الجسد الأحمر الطويل الذي كان يستريح الآن في القاعة الغربية، استمر الشيء الذي يسجّل في التسجيل.

وهذه المرة... سجّل صوت المرأة التي قالت إن السيطرة نادرًا ما تدوم.

الفصل الرابع

الغرور والظل

جاءت المنافسة الداخلية في اليوم التالي أشد مما توقع الجميع.

لم تكن مجرد تدريب روتيني. أعلن المدرب حسن في الصباح أن الفائز سيحصل على امتياز خاص: أولوية اختيار الحشرة في التدريبات الخارجية القادمة، بالإضافة إلى تقييم استثنائي يُرسل مباشرة إلى لجنة اختيار رواد الفضاء. كان هذا كافيًا ليجعل الهواء في قصر الرياضة أثقل من المعتاد.

وقف الطلبة الاثنا عشر في صف واحد أمام المنصات. خلفهم كانت الحشرات العملاقة تنتظر في صمت غريب. النحلة الحمراء في مكانها المعتاد، لا تتحرك إلا بتحريك خفيف لقرني الاستشعار.

رفع المدرب يده.

— التحدي بسيط. ثلاث جولات من المناورات الحرة. من يحافظ على أعلى سرعة مع أقل أخطاء، ومن ينفذ أخطر الحركات بأكبر قدر من السيطرة... يفوز. ابدأوا.

انطلقت الحشرات دفعة واحدة.

منذ اللحظة الأولى سيطر سمير. ارتفعت «قرمزي» كاللهب، دارت حول القاعة مرتين بسرعة جنونية، ثم انقضت في قوس حاد كاد يلامس رؤوس الطلبة الواقفين على الأرض قبل أن ترتفع مجددًا. صرخ أحدهم من المفاجأة. ضحك آخر بعصبية.

في الجولة الثانية تجاوز سمير الحدود أكثر. دفع النحلة إلى دوران مزدوج مع انقلاب كامل، ثم هبوط رأسي سريع توقف في آخر لحظة على ارتفاع مترين فقط من الأرض. ارتجف جسد الحشرة تحتة بعنف هذه المرة، وسمع صوتًا خافتًا يشبه الأنين يخرج من مكان ما في صدرها.

ابتسم.

عندما انتهت الجولة الثالثة، كان الجميع يعرف النتيجة قبل أن يعلنها المدرب. نزل سمير من على ظهر النحلة وسط صمت ثقيل، وربت على رأسها بقوة أكبر من اللازم.

— انظري إليهم — همس لها. — لا أحد يستطيع اللحاق بنا.

صفق المدرب حسن مرتين.

— الفائز: سمير وجدي. تقييم استثنائي. امتياز الاختيار الأول مؤكد.

اقترب ماجد ببطء. كان وجهه شاحبًا أكثر من المعتاد.

— كان ذلك متهورًا حتى بمعاييرك.

هز سمير كتفيه وهو يزيل الخوذة.

— المتهور هو من يبقى في الخلف يا ماجد. أنا فقط... أطير كما يجب أن يطير الإنسان.

تقدم شاكر من الجهة الأخرى، وعيناه تشتعلان.

— كدت تقتلها اليوم. سمعت ذلك الصوت الذي خرج منها؟ هل سمعت؟

نظر إليه سمير ببرود.

— سمعت. صوت ضعف. سأصلحه في المرة القادمة.

رفع شاكر يده كما لو كان يريد أن يمسك بكتف سمير، ثم أسقطها.

— يومًا ما ستدفع ثمن هذا الغرور. ولن يكون الثمن من مالك وحدك.

ابتسم سمير ابتسامة جانبية، ثم ابتعد تاركًا الاثنين خلفه.

في تلك الليلة، بعد أن انطفأت معظم الأنوار في المهجع، جلس سمير وحده على حافة سريره. لم يستطع النوم. كانت المنافسة ما زالت تدور في رأسه، والتصفيق، والنظرات الحاسدة، والصوت الخافت الذي خرج من صدر النحلة.

فتح الدرج السفلي ببطء، وأخرج صندوقًا معدنيًا صغيرًا. داخله صورة قديمة مطبوعة على ورق سميك، وصوت تسجيل قصير على شريحة قديمة.

الصورة كانت لرجل في الخمسينيات، يقف أمام بوابة مبنى رسمي في القاهرة، يرتدي بدلة رسمية، ويده على كتف صبي صغير يشبه سمير تمامًا. الرجل لا يبتسم. عيناه حادتان، وفمه مشدود كأنه يرفض أن يظهر أي ضعف.

شغّل سمير الشريحة. جاء صوت أبيه، كما كان دائمًا: منخفض، حاسم، بلا عاطفة زائدة.

«في هذه العائلة لا مكان للثاني، سمير. إما أن تكون الأول... أو لا تكون شيئًا. تذكّر هذا كلما شعرت بالتعب.»

أغلق الشريحة بسرعة، وأعاد الصندوق إلى مكانه. جلس في الظلام فترة طويلة، يحدّق في النافذة التي يظهر منها ضوء القمر الخافت على البحر.

كان يعرف أن الخوف موجود في مكان ما داخله. خوف من أن يعود يومًا إلى البيت دون أن يكون «الأول». خوف من عيني أبيه اللتين لا تغفران. لذلك كان يطير أسرع، ويضغط أقوى، ويرفض أن يتراجع حتى عندما يرتجف جسد الحشرة تحتة.

الغرور لم يكن فقط غرورًا. كان درعًا.

في القاعة الغربية، حيث تستريح الحشرات في ظلام دافئ نسبيًا، كانت النحلة الحمراء لا تزال مستيقظة.

الجهاز العصبي الذي بدأ يسجّل منذ أيام كان يعمل الآن بنشاط أكبر. الأنماط تتراكم: الوخزات المتكررة في المكان نفسه، الاندفاعات القاسية، الدورانات التي تتجاوز قدرة الأجنحة، والصوت البشري الذي يأتي دائمًا بعد الألم... صوت يشبه الرضا.

شيء جديد انضاف هذه الليلة.

رائحة الرجل عندما نزل من على ظهرها بعد المنافسة. رائحة مختلفة. ليست فقط سيطرة. بل... حاجة.

والحاجة، بطريقة ما، كانت أخطر من القسوة.

حرّكت النحلة أحد جناحيها ببطء تحت الغطاء الواقي، ثم طوته مجددًا. في الأعماق، استمر التسجيل.

وهذه المرة لم يكن يسجّل الألم فقط.

كان يبدأ في ربط الألم... بالوجه الذي يملك المناخس.

الفصل الخامس

إشارات مبكرة

في الصباح التالي بدا الهواء داخل قصر الرياضة أثقل من المعتاد. لم يكن هناك منافسة رسمية، لكن المدرب حسن قرر أن يجعل التدريب أشد قسوة. قال إن على الجميع أن يتعلموا كيف يتعاملون مع المفاجآت في الفضاء الحقيقي، حيث لا توجد أرضية مبطنة ولا جدران تحميهم.

صعد سمير إلى ظهر النحلة الحمراء كالعادة. أحس بجسدها تحتة أقل استجابة من الأيام السابقة. قرنا الاستشعار كانا يتحركان بسرعة أكبر، والاهتزاز الخفيف في الصدر بدا غير منتظم.

رفع يده في إشارة البدء مع الآخرين، ثم وخزها لتندفع إلى الأمام.

استجابت... لكن بعد لحظة تأخير قصيرة جدًا.

لحظات قليلة لا تكاد تُحسب، لكنها كانت كافية ليلاحظها.

ابتسم سمير ابتسامة ضيقة، ووخزها مرة أخرى بقوة أكبر. ارتفعت هذه المرة بسرعة، ودارت كما أمرها، ثم انقضّت في القوس الحاد الذي يحبه. كل شيء بدا طبيعيًا... حتى جاءت اللحظة التي قرر فيها أن يدفعها إلى أبعد مما سبق.

أشار لها بالانقلاب الكامل مع هبوط رأسي سريع جدًا، ثم صعود مفاجئ في آخر لحظة. نفّذت النصف الأول. انقلبت، وهبطت كالحجر. لكن عندما جاء أمر الصعود الحاد... توقفت الأجنحة عن الضرب للحظة كاملة.

ثانية واحدة فقط.

ثانية بدت لسمير كأنها دهر.

شعر بجسده ينزلق إلى الأمام من قوة الاندفاع، وكاد يفقد التوازن. صرخ في وجهها، ووخزها بعنف في الجانبين معًا. ارتجف الجسد الطويل تحتة، ثم عادت الأجنحة إلى الحركة فجأة، وارتفعت به في اللحظة الأخيرة قبل أن تصطدم بالأرضية المبطنة.

هبط بعنف على المنصة. قفز من على ظهرها قبل أن تتوقف تمامًا، ووقف أمام رأسها مباشرة. كانت العينان المركبتان تنظران إليه بلا تعبير واضح، لكن قرني الاستشعار كانا منتصبين تمامًا.

رفع المناخس عاليًا وضرب بها جانب الرأس مرتين بقوة. صوت الاصطدام المعدني بالجلد السميك تردد في القاعة.

— لن تتكرري هذا أبدًا — قال بصوت منخفض حاد. — أنتِ ملكي. وأنتِ ستطيعين.

لم تتحرك النحلة. لكنها سحبت رأسها بضعة سنتيمترات إلى الخلف. حركة صغيرة، شبه لا إرادية.

من المنصة العليا كانت الدكتورة ليلى تراقب كل شيء.

downstream

بعد انتهاء التدريب مباشرة، طلبت ليلى من المدرب حسن أن تسمح لها بفحص ثلاث من الحشرات: الحمراء والزرقاء وواحدة خضراء أخرى. وافق على مضض.

في المختبر الملحق بالقاعة الغربية، وقفت ليلى أمام شاشات البيانات وهي تمرر أصابعها على النتائج. المعدلات العصبية للحمراء كانت أعلى من المعتاد بنسبة سبعة عشر في المئة. أنماط النشاط في العقدة المركزية تُظهر تكرارات غير مفسَّرة. وفي الزرقاء ظهرت إشارات مشابهة، وإن كانت أضعف.

همست لنفسها:

— إنهم يتعلمون أسرع مما يجب.

سمعت خطوات خلفها. التفتت فرأت ماجد يقف عند الباب، مترددًا.

— دكتورة... هل يمكنني الدخول؟

أومأت. دخل وأغلق الباب خلفه.

قال بصوت منخفض:

— رأيت ما حدث اليوم. اللحظة التي توقفت فيها. سمير عاقبها بشدة بعد ذلك.

نظرت ليلى إلى الشاشات مرة أخرى، ثم إلى ماجد.

— هذه ليست المرة الأولى. في الأسبوع الماضي سجّلنا تأخيرًا مشابهًا في اثنتين أخريين. والذاكرة الجماعية... بدأت تظهر. عندما تتعرض واحدة منها لألم شديد ومتكرر، تبدأ الأخريات في إظهار استجابات دفاعية حتى لو لم يُمسسن.

صمت ماجد لحظة.

— هل أخبرت الإدارة؟

ابتسمت ليلى ابتسامة متعبة.

— أخبرتهم. قالوا إن البيانات غير حاسمة، وإن أي تأخير هو مجرد إجهاد عضلي. المشروع مهم جدًا اقتصاديًا... ولا أحد يريد أن يسمع عن «وعي» محتمل.

نظر ماجد من النافذة الصغيرة التي تطل على القاعة الغربية، حيث كانت الحشرات تستريح الآن في أماكنها.

— وسمير؟

همست ليلى:

— سمير يعتقد أنه يسيطر. وهذا بالضبط ما يجعل الأمر أخطر.

في تلك الليلة، بينما كان معظم الطلبة نائمين، وقف سمير وحده أمام الزجاج العاكس في المهجع. نظر إلى وجهه طويلاً، ثم همس كأنه يخاطب شخصًا آخر في المرآة:

— لن أسمح لأي شيء أن يتأخر. لا حشرة... ولا إنسان.

أما في الظلام الدافئ للقاعة الغربية، فكانت النحلة الحمراء لا تزال مستيقظة. الشيء الذي يسجّل في أعماقها كان يعمل الآن بلا انقطاع. سجّل التأخير. سجّل الوخزات العنيفة بعدها. سجّل الصوت البشري الذي جاء مع الألم.

ولأول مرة... سجّل شيئًا يشبه القرار.

الفصل السادس

قرار التحدي

كان المساء قد انتصف عندما دخل سمير إلى قاعة الطعام المشتركة وهو يحمل في عينيه تلك النظرة التي يعرفها الجميع. النظرة التي تسبق دائمًا شيئًا كبيرًا وخطيرًا.

كانت القاعة نصف ممتلئة. معظم الطلبة المتقدمين جالسون حول الطاولات الطويلة، يتحدثون بصوت منخفض عن تدريبات اليوم وعن الشائعات التي بدأت تنتشر بخصوص سلوك بعض الحشرات. عندما ظهر سمير عند الباب، خفتت الأصوات تدريجيًا.

مشى بين الطاولات بخطوات هادئة واثقة، ثم توقف في منتصف القاعة تمامًا. لم يصعد على أي منصة، ولم يرفع صوته كثيرًا. كان يكفي أن يقف هناك وينتظر.

التفت الجميع إليه.

قال بصوت واضح هادئ، كأنه يتحدث عن أمر عادي:

— غدًا عند شروق الشمس... سآخذ نحلتي إلى خارج قصر الرياضة.

صمت تام.

أكمل وهو ينظر من وجه إلى آخر:

— سأحلق بها فوق البحر المتوسط. أصعد إلى ارتفاع كيلومتر كامل، ثم أنقضّ رأسيًا بأقصى سرعة ممكنة، وأحوّل الطيران إلى أفقي على ارتفاع ثلاثمائة متر فقط. من يريد أن يشاهد... فليكن عند شاطئ كليوباترا قبل الفجر.

انفجر المكان بالهمسات فجأة.

قال أحد الطلبة من الطاولة البعيدة بصوت فيه شيء من الإعجاب المكبوت:

— هذا جنون... لكنه سيكون منظرًا يستحق المشاهدة.

ضحك آخر ضحكة عصبية:

— إذا نجح... فسيُكتب اسمه في تاريخ الأكاديمية.

أما شاكر فقد وقف فجأة، ووجهه محمر.

— أنت مجنون تمامًا. هذه الحشرات لم تُصمَّم للطيران الخارجي الحر، ولا للسرعات القصوى بهذا الشكل. الأجنحة قد تتمزق. وأنت قد تموت.

نظر إليه سمير ببرود تام.

— الأجنحة ستتحمل. وأنا لن أموت. هذه هي النقطة كلها.

تقدم ماجد من جهة أخرى. كان صوته أهدأ، لكنه أكثر إلحاحًا.

— سمير... استمع إليّ. رأينا جميعًا ما يحدث في الأيام الأخيرة. التأخيرات، الارتجافات، الرفض اللحظي. هذه ليست مجرد حشرة متعبة. هناك شيء يتغير. وإذا دفعتها إلى هذا الحد في الخارج... قد لا تستطيع السيطرة عليها.

ابتسم سمير ابتسامة صغيرة مائلة.

— السيطرة ليست المشكلة يا ماجد. المشكلة أنكم جميعًا تخافون من الارتفاع الحقيقي. أنا لا أخاف.

من باب القاعة الخلفي ظهرت الدكتورة ليلى. كانت قد سمعت الضجيج وجاءت مستطلعة. وقفت تستمع للحظات، ثم تقدمت بضع خطوات.

قالت بصوتها الهادئ الواضح الذي يقطع الضجيج فورًا:

— ما تقترحه يا سمير وجدي يخالف كل بروتوكولات السلامة في الأكاديمية. وإذا أصابك مكروه، أو أصاب الحشرة، فستكون المسؤولية أكبر مما تتصور.

التفت إليها سمير ببطء.

— المسؤولية ستكون لي وحدي يا دكتورة. وأنا لا أطلب إذنًا... أنا أخبركم بما سأفعله.

صمتت ليلى لحظة، ثم قالت وهي تنظر مباشرة إلى عينيه:

— أحيانًا يكون أكبر خطر يواجهه الإنسان هو اعتقادُه أنه يسيطر على ما لا يمكن السيطرة عليه بالكامل.

لم يرد سمير. اكتفى بأن يميل برأسه قليلاً في إشارة غامضة، ثم التفت إلى بقية الطلبة.

— الفجر غدًا. شاطئ كليوباترا. من يريد أن يرى كيف يُحلق الإنسان الحقيقي... فليأتِ.

ثم خرج من القاعة بخطوات هادئة، تاركًا وراءه موجة جديدة من الهمسات والجدل.

في المهجع، بعد ساعة، دخل ماجد غرفة سمير دون استئذان. وجده جالسًا على السرير وهو يفحص اللجام الإضافي الذي صنعه بنفسه.

قال ماجد بصوت منخفض:

— يمكنك التراجع الآن. لا أحد سيعتبرك جبانًا.

رفع سمير عينيه إليه.

— التراجع هو الجبن الحقيقي. وأنت تعرف ذلك.

صمت ماجد لحظة طويلة، ثم همس:

— أنا خائف عليك... وخائف مما قد يحدث بعدها.

ابتسم سمير هذه المرة ابتسامة حقيقية، لكنها كانت حزينة في أعماقها.

— الخوف يا ماجد هو الشيء الوحيد الذي لم أسمح له أبدًا أن يطير معي.

عندما خرج ماجد وأغلق الباب، بقي سمير وحده. أمسك باللجام الإضافي بقوة، ونظر من النافذة إلى الظلام الذي يغطي البحر.

في مكان ما داخل ذلك الظلام، كانت النحلة الحمراء تستريح في القاعة الغربية. والجهاز الذي يسجّل في أعماقها كان قد سجّل بالفعل صوت الرجل وهو يعلن التحدي... وكان ينتظر الآن ما سيأتي مع الفجر.

الفصل السابع

التحضير

لم ينم أحد تقريبًا في تلك الليلة.

في المهجع الشرقي كانت الأضواء الخافتة لا تزال مشتعلة بعد منتصف الليل بوقت طويل. أصوات همسات متقطعة تتسرب من تحت الأبواب، وخطوات خفيفة في الممرات، ورائحة القهوة القوية التي يُحضّرها من يحاولون البقاء مستيقظين.

أما سمير فكان في القاعة الصغيرة الملحقة بمخزن المعدات. الطاولة أمامه مغطاة بأدوات وأشرطة جلدية ومشابك معدنية. كان يصنع لجامًا إضافيًا بيديه. لجام أقوى، بأربعة نقاط تثبيت بدل اثنتين، وسلسلة معدنية رفيعة لكنها متينة تربط السرج بجسد الحشرة من الأمام والخلف.

عمل في صمت تام لأكثر من ساعتين. أصابعه تتحرك بسرعة ودقة، كأنه يخيط درعًا لنفسه لا لحشرة.

فتح الباب خلفه دون أن يطرق. دخل ماجد، وتبعه شاكر بعد لحظات. وقف الاثنان يراقبانه دون أن يتكلما في البداية.

قال ماجد أخيرًا بصوت منخفض:

— هذا اللجام... يبدو كأنك تستعد لمعركة لا لطيران.

لم يرفع سمير رأسه عن عمله.

— الطيران الحقيقي معركة دائمًا.

تقدم شاكر خطوة، ووضع يده على حافة الطاولة.

— يمكنك التوقف الآن. لا أحد سيسخر منك إذا ألغيت الأمر في الصباح. الجميع يعرف أن ما تفعله يتجاوز الحدود.

رفع سمير عينيه أخيرًا. كانت عيناه حمراوين من قلة النوم، لكن النظرة فيهما لم تكن متعبة.

— الحدود وُجدت ليتجاوزها أحدهم. وأنا اخترت أن أكون هذا الأحد.

صمت ثقيل ملأ الغرفة الصغيرة. ثم قال ماجد وهو ينظر إلى اللجام الجديد:

— وإذا رفضت الحشرة؟ إذا توقفت كما توقفت بالأمس؟

ابتسم سمير ابتسامة قصيرة جافة.

— لن ترفض. سأجعلها تفهم منذ اللحظة الأولى من يملك السيطرة.

خرج الاثنان بعد قليل دون أن يحصلا على أكثر من ذلك. عندما أغلق الباب خلفهما، توقف سمير عن العمل للحظة، وأغلق عينيه. تنفس بعمق مرتين، ثم عاد إلى تثبيت المشابك الأخيرة.

في القاعة الغربية كان الظلام دافئًا ورطبًا قليلاً. الحشرات العملاقة الاثنتا عشرة كانت في أماكنها المعتادة، أجسادها الطويلة نصف مطوية، أجنحتها مغطاة بأغطية واقية خفيفة.

لكن النحلة الحمراء لم تكن نائمة.

منذ ساعات كانت تشعر بتغيير في الهواء. رائحة الرجل الذي يملك المناخس وصلت إليها من بعيد، مختلطة برائحة الجلد الجديد والمعدن المصقول. شيء ما كان يُجهَّز.

حرّكت رأسها ببطء نحو الجهة التي توجد فيها الأخوات الأخريات. أطلقت من غددها الصدرية كمية ضئيلة جدًا من مواد كيميائية معقدة. رائحة لا يشمها البشر، لكنها كانت بالنسبة للنحل لغة كاملة.

وصلت الرسالة إلى النحلة الزرقاء أولاً. ثم إلى الخضراء. ثم انتشرت بهدوء بين البقية.

لم تكن كلمات. كانت صورًا وإحساسات: الضغط المتكرر على الجانبين، الوخزات التي تأتي مع الصوت الحاد، التأخير الذي عوقب عليه، والارتفاع الذي ينتظر عند الفجر.

النحلة الزرقاء ردّت بإشارة كيميائية أضعف، لكنها واضحة: تذكّر. راقب. لا تنفردي تمامًا.

الخضراء أرسلت شيئًا يشبه التحذير.

أما الحمراء فأرسلت أخيرًا إشارة واحدة قصيرة وحادة.

قرار.

ثم طوت رأسها مجددًا تحت الجناح، وهدأت الحركة في جسدها. لكن الجهاز الذي يسجّل في الأعماق لم يتوقف. كان يستعد الآن لما هو آتٍ، ولأول مرة لم يكن الاستعداد مجرد تسجيل للألم.

كان استعدادًا لشيء آخر.

قبل الفجر بساعة، وقف سمير أمام المرآة في غرفته. ارتدى الزي التدريبي الثقيل المخصص للطيران الخارجي، وثبت الخوذة تحت ذراعه، وعلق اللجام الجديد على كتفه. نظر إلى وجهه طويلاً في المرآة، ثم همس كأنه يؤكد لنفسه:

— اليوم... سأطير كما يجب أن يطير الأول.

خرج إلى الممر المظلم. في نهايته كان البحر ينتظر، ومعه ارتفاع كيلومتر من الهواء البارد، ونحلة حمراء بدأت للتو تفهم أن القواعد قد تتغير.

الفصل الثامن

شاطئ كليوباترا

جاء الفجر رماديًا في البداية، ثم انشق عن خط أحمر رفيع فوق الأفق الشرقي. الهواء كان باردًا ورطبًا، يحمل رائحة الملح والطحالب والصخور المبللة.

على شاطئ كليوباترا وقف أكثر من عشرين طالبًا في صفين غير منتظمين. بعضهم يفرك يديه ليتدفأ، وبعضهم يحدّق في البحر بصمت. ماجد وشاكر كانا في المقدمة، وجههما متوتران. خلف الجميع وقفت الدكتورة ليلى مرتدية معطفًا ثقيلًا، ويداها في جيبيها، عيناها لا تفارقان الأفق.

ثم ظهر سمير.

كان يقود النحلة الحمراء من اللجام الجديد الذي صنعه في الليلة السابقة. الحشرة تمشي خلفه بخطوات ثقيلة متثاقلة على الرمال، أجنحتها مطوية بإحكام، ورأسها يتحرك يمينًا ويسارًا كأنما تشم الهواء المفتوح لأول مرة منذ زمن طويل. الجسد الأحمر اللامع كان يبدو أكبر تحت ضوء الفجر الخافت، وأكثر وحشية.

توقف سمير عند حافة الماء تقريبًا. التفت إلى الطلبة وقال بصوت مرتفع بما يكفي ليسمعه الجميع:

— شاهدوا جيدًا. هذا هو الطيران الحقيقي.

ثم وضع قدمه في الركاب، وصعد إلى السرج بحركة واحدة سلسة. ثبت اللجام الإضافي في النقاط الأربع، شدّ الحزام حول وسطه مرتين، وأمسك بالمناخس. تنفّس عميقًا مرة واحدة.

وخز النحلة.

في البداية لم تتحرك. وقفت ثابتة على الرمال، قرنا الاستشعار منتصبان، والجسد يهتز اهتزازًا خفيفًا. شعر سمير بالمقاومة، فوخزها مرة أخرى بقوة أكبر في الجانبين معًا.

ارتفعت الأجنحة فجأة.

الصوت الذي أحدثته كان مختلفًا عن الصوت داخل قصر الرياضة. أعمق، وأوسع، وكأنه يخرج من صدر العالم نفسه. ضربت الأجنحة الهواء مرتين، ثلاثًا، ثم اندفعت الحشرة إلى الأعلى بقوة هائلة أثارت سحابة من الرمال حولها.

شعر سمير بالضغط على صدره كقبضة حديدية. الريح ضربت وجهه فورًا، باردة وحادة ومحمّلة برذاذ البحر. ارتفع بسرعة مجنونة. الشاطئ صار صغيرًا تحتة في ثوانٍ، والطلبة مجرد نقاط داكنة على الرمال البيضاء. البحر امتد حوله من كل جهة، مساحة لا نهائية من الرمادي والأزرق الذي يبدأ في اكتساب لون الذهب مع شروق الشمس.

صعد.

المائة متر... مائتان... خمسمائة. الهواء يصير أرق، والبرد أشد. كان يسمع فقط صوت الأجنحة وصوت تنفسه داخل الخوذة. نظر إلى الأسفل مرة واحدة فرأى خط الشاطئ كخيط رفيع، والصخور الشهيرة التي تشبه التماثيل القديمة تبدو كألعاب أطفال.

استمر في الصعود.

عند ارتفاع قريب من الكيلومتر أحس أن النحلة تبطئ قليلاً. الجسد تحتة يرتجف بموجة طويلة وعميقة. شدّ اللجام، ووخزها بخفة هذه المرة، لا بقسوة. استجابت وواصلت الارتفاع حتى استقرت أخيرًا في الهواء الرقيق البارد.

تحتهم مباشرة كان البحر المتوسط يبدو كمرآة عملاقة مكسورة، تعكس ضوء الشمس الأول في آلاف الشظايا المتلألئة. الأفق منحني قليلًا. السماء فوقه زرقاء داكنة، تكاد تكون سوداء في أعلاها.

شعر سمير بشيء لم يشعر به داخل القاعة أبدًا.

حرية مجنونة، مختلطة بخوف بارد ينمو في قاع معدته. الخوف لم يكن من السقوط. كان من الارتفاع نفسه، من المساحة الهائلة التي لا يوجد فيها جدار واحد يحدّه.

ابتسم داخل الخوذة.

همس للنحلة، وصوته يكاد يضيع في الريح:

— انظري... لم يعد هناك سقف فوقنا.

حرّكت النحلة رأسها قليلاً إلى الجانب. إحدى عينيها المركبتين التقطت صورة الرجل الجالس على ظهرها، والبحر الشاسع تحتها، والسماء التي لا تنتهي.

ثم أعادت رأسها إلى الأمام، وانتظرت الأمر التالي.

على الشاطئ كان الجميع يرفعون رؤوسهم في صمت تام. ماجد يضغط على يد شاكر دون أن يدري. والدكتورة ليلى تهمس لنفسها بكلمات لم يسمعها أحد:

— الآن بدأت اللعبة الحقيقية.

الفصل التاسع

الاقتضاض

استقرّت النحلة الحمراء في الهواء على ارتفاع كيلومتر كامل. الأجنحة تضرب الآن بوتيرة أبطأ وأكثر انتظامًا، تحافظ على التوازن فقط. الريح حولهما كانت صفيرًا متصلًا حادًا، والبرد يصل إلى العظام رغم الزي الثقيل.

نظر سمير إلى الأسفل.

البحر تحتة مساحة لا نهائية من الأزرق المعدني الذي يتلألأ مع أشعة الشمس المنخفضة. الشاطئ بدا كخط رفيع باهت، والطلبة غير مرئيين تمامًا. أحس للحظة أنه الوحيد في العالم، معلق بين السماء والماء على ظهر مخلوق حيّ عملاق.

ابتسم داخل الخوذة. ثم شدّ اللجام بقوة، وانحنى إلى الأمام، ووخز النحلة في نقطة حساسة عند قاعدة الرقبة.

بدأت.

مالت الحشرة رأسها إلى الأسفل أولاً، ثم انحنى الجسد كله تدريجيًا حتى صار عموديًا تمامًا. الأجنحة طويت جزئيًا للخلف لتقليل المقاومة، وبدأ السقوط.

في الثواني الأولى كان السقوط سلسًا نسبيًا. الهواء يمر حولهما كجدار سائل. لكن السرعة ازدادت بسرعة مرعبة. شعر سمير بالضغط يتراكم على وجهه وعلى صدره. الخوذة تهتز، واللجام يرتجف في يديه كأنه يريد أن ينفلت.

مائة وخمسون كيلومترًا في الساعة...

مائتان...

مائتان وخمسون...

الجسد الأحمر تحتة صار كله توترًا. سمع صوتًا عميقًا يخرج من صدر الحشرة، أشبه بأنين طويل مكبوت. الأجنحة تهتز الآن بعنف، والأطراف الخلفية منقبضة بشدة على الهواء غير الموجود.

ثلاثمائة...

ثلاثمائة وخمسون...

الريح لم تعد ريحًا. صارت جدارًا صلبًا يضربه من كل اتجاه. الرؤية تضبّبت للحظات بسبب الدموع التي انتزعتها السرعة من عينيه رغم الخوذة. قلبه يخفق بقوة مجنونة داخل صدره، لكنه كان يضحك. ضحكًا صامتًا مبحوحًا من الفرحة الخالصة.

أربعمائة كيلومتر في الساعة.

وصل.

الآن... التحويل.

شدّ اللجام بكل قوته إلى الخلف والأعلى، ووخز النحلة مرتين متتاليتين في الجانبين إشارة إلى فتح الأجنحة والتحول إلى الطيران الأفقي. الجسد الطويل بدأ يرتفع ببطء في قوس واسع. الضغط ازداد عشرة أضعاف. شعر كأن وزن العالم كله يستقر على كتفيه وعلى عموده الفقري.

نجح النصف الأول من القوس. الأنفاس محبوسة، والعضلات مشدودة حتى الألم.

ثم حدث ذلك.

الجناح الأيسر توقف فجأة عن الضرب.

للحظة قصيرة جدًا بدا كأن الزمن نفسه تجمّد. سمير شعر بالخلل قبل أن يراه. الميلان جاء عنيفًا إلى اليسار. حاول تصحيح الوضع بالمناخس واللجام معًا، فاستجاب الجناح الأيمن بقوة أكبر... ثم توقف هو أيضًا.

فقدت النحلة السيطرة تمامًا.

دار الجسد العملاق حول نفسه مرة، مرتين، في دوامة مجنونة لا يمكن التحكم فيها. السماء والبحر يتبادلان الأماكن بسرعة مرعبة. صوت الهواء صار صراخًا، ورائحة الملح اختلطت فجأة برائحة شيء محروق يأتي من جهة الأجنحة.

صرخ سمير داخل الخوذة. حاول فتح الأجنحة بالقوة، وخز، شدّ، ضرب، لكن لا شيء يستجيب. الجسد تحتة يرتجف ارتجافات عنيفة متتالية، كأنه يتشنج.

البحر يقترب بسرعة مستحيلة.

في آخر ثانية قبل الاصطدام، وبمجهود يبدو فوق طاقتها، نجحت النحلة في فرد جناحيها جزئيًا. لم يكن كافيًا لإيقاف السقوط، لكنه كان كافيًا لتخفيف الضربة.

اصطدما بسطح الماء كقذيفة.

الصدمة كانت هائلة. الماء انفتح حولهما ثم انغلق فوقهما كقبة خضراء مظلمة. اندفع سمير إلى الأمام بقوة الحزام الذي كاد يقطع جسده إلى نصفين. الهواء خرج من رئتيه دفعة واحدة. الظلام والبرودة والضغط من كل جهة.

ثم بدأ الصعود البطيء المؤلم نحو السطح من جديد.

الفصل العاشر

السقوط والنجاة

الماء كان عالمًا آخر.

باردًا، كثيفًا، ومظلمًا في الأعماق الأولى. اندفع سمير إلى الأمام بقوة الاصطدام حتى كاد الحزام يقطع أضلاعه. الهواء خرج من رئتيه دفعة واحدة، وامتلأ فمه بطعم الملح المر. حاول أن يتحرك، لكن كل شيء حوله كان يدور: فقاعات هواء كبيرة تتجه إلى الأعلى، وأجنحة النحلة العملاقة تضرب الماء بعنف عشوائي، وجسده هو نفسه يُسحب إلى الأسفل ثم يُدفع إلى الأعلى مع كل حركة للحشرة.

في لحظة ما لم يعد يعرف أين السطح.

ثم رأى الضوء.

نقطة باهتة فوقه تتحرك وتقترب. شدّ جسده بكل ما تبقى له من قوة، ودفع نفسه نحوها. انفجر السطح فجأة حوله، ودخل الهواء إلى رئتيه كالسكاكين. سعل، تقيأ ماءً مالحًا، وحاول أن يطفو.

على بُعد أمتار قليلة كانت النحلة الحمراء تتخبط على سطح الماء. أحد جناحيها يبدو مائلاً بشكل غير طبيعي، والجسد الطويل نصف مغمور. كانت تحاول فرد الأجنحة والارتفاع، لكن الماء الثقيل كان يعيقها.

من الشاطئ وصل الصوت أولاً.

صراخ مختلط، ثم أصوات أشخاص يركضون. ماجد وشاكر كانا أول من رمى بنفسه في الماء، يسبحان نحوه بقوة. خلفهما طلبة آخرون، وبعضهم يقف على الرمال يضحكون ضحكات عصبية عالية، كأن الضحك هو الطريقة الوحيدة لاستيعاب ما حدث.

— هبوط متزن رائع!

— يا لك من ملاح فضائي مثالي!

— هل هذا هو الطيران الحقيقي الذي وعدت به؟

الكلمات كانت تصل إلى سمير مشوشة وهو ما زال يبصق الماء ويدفع بجسده نحو الشاطئ. عندما لمست قدماه الرمل أخيرًا، سقط على ركبتيه، ثم انقلب على ظهره وهو يلهث. السماء فوقه كانت زرقاء صافية وساخرة.

وصل ماجد أولًا. ركع بجانبه ومسكه من كتفيه.

— هل أنت بخير؟ هل كُسرت عظام؟ تكلم يا سمير!

دفعه سمير بعيدًا بقوة مفاجئة، ووقف مترنحًا. الماء يسيل من شعره ومن ملابسه الثقيلة، ووجهه شاحب لكنه مشدود بالغضب.

— أنا بخير — قال بصوت أجش. — الحشرة هي المشكلة.

التفت نحو النحلة التي نجحت أخيرًا في الزحف إلى المياه الضحلة قرب الشاطئ. كانت ترفع رأسها بصعوبة، وأحد جناحيها يرتجف بلا انتظام.

تقدم سمير نحوها بخطوات غير ثابتة. خلفه كان شاكر يصيح:

— اتركها! أنت محظوظ أنك ما زلت حيًا بعد هذه الحماقة!

لكن سمير لم يسمع. وصل إلى الحشرة، ورفع يده وأشار إليها بسبابته كأنه يوبخ طفلًا.

— أنتِ... أنتِ من فشلتِ. كل ما كان عليكِ فعله هو فتح الجناحين في الوقت المناسب. فقط هذا. وأنا كنت سأنجح. كنت سأصبح...

صوته انقطع بسبب سعالة قوية. بصق مزيدًا من الماء المالح، ثم رفع رأسه ونظر إلى الطلبة الواقفين على الشاطئ. بعضهم ما زال يضحك، وبعضهم ينظر في صمت غير مريح.

ابتسم سمير ابتسامة مجنونة صغيرة، وقال بصوت مرتفع هذه المرة:

— في المرة القادمة... سأجعلها تطيع حتى لو اضطررت إلى كسر شيء فيها.

ثم التفت مجددًا إلى النحلة الحمراء التي كانت تنظر إليه بعينين مركبتين لا تعكسان أي شيء مفهوم للبشر.

في تلك اللحظة، على الشاطئ المبلل تحت شمس الصباح، بدا الغضب في وجه سمير أوضح من أي شيء آخر. الغضب من السقوط، ومن الضحك، ومن اللحظة التي فقد فيها السيطرة.

والغضب... كان يبحث عن شخص يلومه.

ولم يجد سوى الحشرة.

الفصل الحادي عشر

الغضب

وقف سمير على الرمال المبللة، والماء ما زال يسيل من ملابسه الثقيلة. التنفس يخرج من صدره متقطعًا وحادًا. خلفه كان الطلبة يتجمعون في نصف دائرة صامتة الآن، الضحك قد مات فجأة عندما رأوا النظرة في عينيه.

مدّ يده إلى الحافظة المثبتة على فخذه الأيمن. أخرج المسدس الليزري الصغير الأسود الذي يُسمح للطلبة المتقدمين بحمله في التدريبات الخارجية للطوارئ فقط. رفعه، وصوّب فوهته مباشرة نحو رأس النحلة الحمراء التي كانت لا تزال نصف راقدة في المياه الضحلة.

صوت ماجد جاء من الخلف مبحوحًا من الرعب:

— سمير... لا!

لكن الإصبع كان قد ضغط بالفعل.

انطلق الشعاع الأحمر الرفيع بصوت أزيز حاد. في اللحظة نفسها تحركت النحلة. لم تبتعد كثيرًا، لكنها مالت برأسها الضخم إلى الجانب بسرعة لا تتناسب مع حجمها. اصطدم الشعاع بالصخور خلفها وأحدث شرارة بيضاء صغيرة وتفحمًا سطحيًا.

أعاد سمير التصويب وهو يصرخ:

— ابقِ ساكنة!

أطلق مرة ثانية. هذه المرة رفعت النحلة أحد جناحيها السليمين كدرع. امتصّ الجناح السميك جزءًا من الطاقة، واحترق طرفه لكنه حمى الرأس. ثم حدث ما لم يتوقعه أحد.

اندفع الجزء الأمامي من جسدها إلى الأمام في حركة مفاجئة وعنيفة. الطرف الأمامي الأيمن، الصلب كالحجر، ضرب سمير في صدره ضربة مباشرة. طار جسمه في الهواء مترين كاملين قبل أن يسقط على الرمال بقوة، والمسدس ينفلت من يده ويسقط بعيدًا.

سعل دمًا خفيفًا، وحاول النهوض. كان الألم حارقًا في أضلاعه. رفع رأسه فرأى النحلة قد وقفت الآن بالكامل على الأرجل الست. الماء يسيل من جسدها الأحمر، والجناح المحترق ما زال يدخن قليلاً. قرنا الاستشعار منتصبان للأمام، والعينان المركبتان ثابتتان عليه.

لم تهاجم مرة أخرى.

لكنها أيضًا لم تتراجع.

الصمت على الشاطئ كان مطبقاً. لا أحد يتحرك. حتى البحر بدا كأنه خفض صوته.

همس شاكر بصوت لا يكاد يُسمع:

— يا إلهي... لقد ضربته.

تقدم ماجد خطوة واحدة فقط، ثم توقف. الدكتورة ليلى كانت قد وصلت إلى المقدمة، وجهها شاحب تمامًا، وعيناها لا تصدقان ما تريان.

حاول سمير الوقوف مجددًا. نجح في الجلوس على ركبتيه، ويده تضغط على صدره. نظر إلى النحلة نظرة امتلأت بشيء أعمق من الغضب هذه المرة. شيء يشبه الإهانة الشخصية المطلقة.

قال بصوت أجش مكسور، وهو يشير إليها بإصبع مرتجف:

— أنتِ... تجرؤين؟

النحلة حرّكت رأسها ببطء شديد إلى اليمين ثم إلى اليسار، كأنها تدرسّه. ثم أصدرت صوتًا منخفضًا من أعماق صدرها. ليس أنين ألم هذه المرة. صوتًا آخر. أعمق، وأكثر ثباتًا.

صوتًا يشبه التحذير.

في تلك اللحظة فهم الجميع، حتى من دون كلمات، أن شيئًا ما قد انكسر إلى الأبد على هذا الشاطئ. لم تعد العلاقة بين الراكب والحشرة كما كانت. ولم يعد الألم يسير في اتجاه واحد فقط.

ابتعدت النحلة الحمراء بضع خطوات ثقيلة نحو المياه الأعمق قليلاً، ثم توقفت منتظرة. لم تهرب. ولم تهاجم مجددًا.

كانت فقط... ترفض أن تُمسّ.

وسمير، الجالس على رمال شاطئ كليوباترا والدماء الخفيفة على شفتيه، أدرك فجأة أن السيطرة التي بناها طوال الشهور... قد بدأت تنهار أمام عينيه.

الفصل الثاني عشر

العودة إلى الأكاديمية

لم ينتظر سمير طويلاً على الرمال.

بعد دقائق قليلة من الضربة، وبينما كان ماجد وشاكر يحاولان مساعدته على الوقوف، تحركت النحلة الحمراء فجأة. لم تهاجم هذه المرة. اقتربت بخطوات ثقيلة واثقة، وخفضت الجزء الأمامي من جسدها حتى صار ظهرها في متناول اليد. ثم انتظرت.

ظنّ الجميع في البداية أنها تستسلم. حتى سمير نفسه، وهو يتنفس بصعوبة ويضغط على أضلاعه المؤلمة، مدّ يده نحو اللجام المكسور كأنه سيعود إلى السيطرة القديمة.

لكن النحلة لم تمنحه الفرصة.

بمجرد أن لمست أصابعه السرج، رفعت جسدها بقوة ورفعته معها في الهواء. أمسكت به الأطراف الأمامية بطريقة لا تترك له مجالًا للسقوط، ثم فردت الجناح السليم والجناح المحترق جزئيًا، وانطلقت نحو الداخل، نحو الأكاديمية، بسرعة منخفضة لكنها ثابتة وغير قابلة للنقاش.

صرخ ماجد من الأسفل:

— أنزليه! سمير قفز أو افعل شيئًا!

لكن سمير لم يكن يستطيع القفز. القبضة التي تحيط به كانت قوية وحاسمة. حاول أن يضرب رأس الحشرة بقبضته الحرة، فاستجابت بهزة عنيفة كادت تفقده وعيه من الألم في صدره. بعد ذلك توقف عن المقاومة الجسدية.

من الأعلى كان الشاطئ يبتعد بسرعة. الطلبة يبدون كالنمل، وبعضهم يركض خلفهما على الرمال دون جدوى. الدكتورة ليلى واقفة في مكانها، يدها على فمها.

من داخل الجسد الأحمر كان العالم مختلفًا تمامًا هذه المرة.

الوزن على الظهر لم يعد وزن سيطرة. صار وزنًا محمولًا بالقوة. رائحة الرجل ما زالت هي نفسها: العرق والخوف المكبوت والغضب. لكن الإحساس الذي يصاحب الرائحة تغيّر. لم يعد هناك وخزات. لم يعد هناك مناخس. هناك فقط الغضب المتراكم الذي صار الآن يشبه طبقة سميكة تحت الجلد كله.

الذاكرة الجماعية كانت تعمل بوضوح غير مسبوق.

صور تتتابع بسرعة: الوخزات المتكررة في المكان نفسه كل صباح، الدورانات القاسية التي تتجاوز قدرة الأجنحة، الصوت البشري الذي يأتي بعد الألم مباشرة ويبدو راضيًا، اللحظة التي توقف فيها الجناح في الهواء والرجل يصرخ كأنه هو الضحية الوحيدة، ثم الشعاع الأحمر الذي حاول أن يحرق الرأس على الشاطئ.

كل صورة كانت مرتبطة بالأخرى. وكلها كانت تؤدي إلى الاستنتاج نفسه الذي بدأ يتشكل منذ أيام.

هذا الكائن لا يستحق أن يُحمَل طواعية.

في القاعة الغربية كانت الأخوات الأخريات قد شعرت بالرسالة الكيميائية القوية قبل وصول الحمراء. عندما دخلت القاعة وهي تحمل الرجل بالقوة، تحركت عدة رؤوس ضخمة نحوها في الوقت نفسه. لم تهاجم واحدة منهن. لكن الهواء امتلأ بإشارات

كيميائية متداخلة: تأكيد، غضب مشترك، وشيء يشبه الاحترام الجديد تجاه الحمراء التي فعلت ما لم تفعله واحدة منهن بعد.

أنزلت النحلة سمير فوق حافة أكبر أحواض الرحيق مباشرة. الحوض الدائري الواسع الممتلئ بالسائل الذهبي الكثيف اللزج الذي يُستخدم عادةً كغذاء ومكافأة بعد التدريبات الطويلة.

ثم دفعته.

سقط سمير داخل الحوض بصوت ارتطام مكتوم. حاول أن يقف، فغرق حتى وسطه في الرحيق الثقيل. حاول أن يزحف نحو الحافة، فوجد الأطراف الأمامية للنحلة قد أغلقت عليه الطريق. كانت تقف على حافة الحوض تمامًا، رأسها منخفض نحوّه، والعينان المركبتان ثابتتان لا ترمشان.

من الباب اندفع ماجد وشاكر وثلاثة آخرين. صرخ شاكر:

— أبعديها عنه! ستقتله!

حاول أن يقترب، فنزلت إحدى الحشرات الزرقاء من مكانها وسدّت الطريق بجسدها العملاق. لم تهاجم. فقط وقفت. ثم جاءت خضراء أخرى من الجهة الثانية. خلال ثوانٍ صار الطريق إلى الحوض مغلقًا بأجساد لامعة ضخمة لا يمكن تجاوزها.

وقفت الدكتورة ليلى عند المدخل، وجهها أبيض كالطباشير. همست لأكثر من مرة:

— إنهم... يحمونها. يحمون قرارها.

داخل الحوض كان سمير يصارع الرحيق الثقيل الذي يلتصق بملابسه ويشدّه إلى الأسفل. رفع رأسه نحو النحلة الحمراء وصرخ بصوت مبحوح مكسور:

— أنا من صنعكِ! أنا من درّبكِ! كيف تجرؤين...؟

النحلة لم تتحرك. فقط حرّكت أحد قرني الاستشعار ببطء شديد، كأنما تستمع إلى صوت لم يعد يعني لها ما كان يعنيه بالأمس.

ثم أصدرت من صدرها ذلك الصوت العميق الثابت نفسه الذي سمعوه على الشاطئ.

صوت لم يعد أنين ألم.

صوت كرامة.

الفصل الثالث عشر

الحوض

الرحيق كان أثقل مما تخيل أي إنسان.

لزج، ذهبي، كثيف كالعسل القديم، ورائحته حلوة إلى درجة الغثيان عندما يدخل الأنف والفم معًا. غرق سمير حتى صدره في البداية، ثم حاول أن يرفع ذراعيه ليسند نفسه على الحافة. الأطراف الأمامية للنحلة الحمراء كانت هناك، صلبة كالجدران، تسدّ أي طريق للخروج.

دفع نفسه إلى الأعلى بجهد يائس. نجح في إخراج كتفيه ورأسه للحظة، فسعل سعالًا عنيفًا وصرخ:

— ماجد! شاكر! افعلوا شيئًا!

من الجهة الأخرى من الدائرة التي شكلتها الحشرات العملاقة كان ماجد يضرب بقبضتيه على الجسد الأزرق الذي يسدّ الطريق، وشاكر يحاول أن يجد فتحة بين الأرجل الطويلة. لا فائدة. الحشرات لم تهاجم، لكنها أيضًا لم تتزحزح سنتيمترًا واحدًا.

الدكتورة ليلى كانت تصرخ في جهاز الاتصال المحمول:

— الطوارئ إلى قاعة الرحيق فورًا! لدينا حالة حرجة... الحشرات ترفض الأوامر!

صوتها كان يرتجف.

داخل الحوض بدأ الرحيق يرتفع حول سمير. لم يكن يرتفع وحده. النحلة الحمراء كانت تدفعه برفق وحسم معًا، بجسدها الأمامي، كلما حاول أن يطفو أو يزحف. السائل الذهبي دخل فمه مرة، فمرة، فمرة. صار البلع ضروريًا حتى لا يختنق فورًا.

في اللحظات الأخيرة تغيرت عيناه.

الغضب الذي كان يشتعل فيهما منذ الشاطئ بدأ ينطفئ شيئًا فشيئًا، وحلّ محله شيء آخر. إدراك متأخر وقاسٍ. نظر إلى العينين المركبتين اللتين تحدقان فيه من فوق حافة الحوض، ورأى فيهما للمرة الأولى ما لم يرد أن يراه طوال الشهور السابقة.

لم تكن آلة.

لم تكن أداة طيعة.

كانت كائنًا يتذكر.

حاول أن يتكلم. خرج الصوت مبحوحًا ومختلطًا بالرحيق:

— نحن... صنعناكم... فقط الحجم... كان يجب أن يتغير...

لم يكمل. السائل أغلق حلقه تمامًا هذه المرة. حاول أن يسعل، فدخل المزيد. ارتجت يداه على سطح الرحيق اللزج، ثم بطؤتا، ثم توقفتا عن الحركة.

آخر صورة رآها كانت السماء المستطيلة البعيدة فوق فتحة السقف في قاعة الرحيق، وجسدًا أحمر لامعًا يقف فوقه كتمثال حيّ.

ثم لا شيء.

عندما نجحت فرق الطوارئ أخيرًا في تفريق الحشرات باستخدام الغازات المهدئة القوية والطلقات الكهربائية منخفضة الشدة، كان الوقت قد تأخر كثيرًا. أخرجوا جسد سمير وجدي من الحوض بعد جهد. الرحيق الذهبي يغطي وجهه وشعره وملابسه ككفن حلو الرائحة. حاول الطبيب الشاب إنعاشه لأكثر من عشرين دقيقة على أرضية القاعة، ثم توقف، ونظر إلى الدكتورة ليلى وهز رأسه مرة واحدة فقط.

انتشر الخبر في الأكاديمية خلال دقائق.

الصمت الذي تبعه كان أثقل من أي صراخ. الطلبة وقفوا في الممرات ينظرون إلى بعضهم البعض كأنهم لا يعرفون كيف يتنفسون. المدرب حسن كان يجلس على كرسي في زاوية القاعة، رأسه بين يديه، لا يتكلم. أما ماجد وشاكر فقد جلسا على الأرض ظهرًا إلى ظهر، بعيدًا عن الحوض، ولم يتحرك أي منهما لفترة طويلة.

بدأت الإجراءات الرسمية قبل غروب الشمس.

أُغلقت قاعة الرحيق بالكامل. وُضعت الحشرات تحت حراسة مشددة ومراقبة إلكترونية مستمرة. وصلت فرق من القاهرة في المساء: محققون، وخبراء هندسة وراثية، ومسؤولون أمنيون. أُغلقت بوابات الأكاديمية، ومُنع أي اتصال خارجي غير مصرح به.

في تقريرها الأولي كتبت الدكتورة ليلى عبد الرحمن جملة واحدة واضحة في الصفحة الأولى:

«الموت لم يكن نتيجة خلل تقني في الحشرة. كان نتيجة قرار.»

ثم أضافت تحتها بخط أصغر:

«الهندسة الوراثية غيّرت الحجم... وغيّرت شيئًا آخر لم نكن نراقبه بما يكفي.»

خارج النوافذ كان البحر المتوسط يواصل حركته المعتادة تحت ضوء القمر، كأنه لم يحدث شيء على شاطئه في ذلك الصباح.

لكن داخل أسوار الأكاديمية كان كل شيء قد تغيّر إلى الأبد.

الفصل الرابع عشر

الانتشار

بعد ثلاثة أيام من موت سمير وجدي بدا أن الأكاديمية قد عادت إلى شيء يشبه النظام. الحراسة مشددة، والاجتماعات الرسمية لا تتوقف، والتقارير اليومية تُرفع إلى القاهرة. لكن تحت هذا السطح الهادئ كان شيء آخر يتحرك.

بدأت الإشارات من المختبر.

الدكتورة ليلى كانت تقضي معظم ساعاتها أمام الشاشات في غرفة المراقبة المركزية. البيانات التي كانت تظهر أمامها لم تعد تحتمل التأويل. المعدلات العصبية لسبع حشرات على الأقل — من بينها الزرقاء والخضراء — كانت ترتفع في أنماط متطابقة تقريبًا مع ما سُجّل سابقًا في الحمراء. أكثر من ذلك: عندما كانت إحدى الحشرات تتعرض لمحاولة توجيه قاسية أثناء الفحوصات الروتينية، كانت الأخريات في القاعة نفسها تُظهر استجابات فسيولوجية فورية: ارتفاع في نبض السوائل الداخلية، وتحريك متزامن لقرني الاستشعار، وإفرازات كيميائية متطابقة.

جلست ليلى في الليلة الثالثة تكتب تقريرًا جديدًا. القلم كان يرتجف قليلاً بين أصابعها.

«الذاكرة لم تعد فردية. هناك تواصل. هناك نقل للخبرة. ما حدث مع النحلة الحمراء لم يمت معها.»

في الصباح التالي استدعت ماجد وشاكر إلى المختبر. كان الاثنان شاحبين، وعينا ماجد محمرتان من قلة النوم. أغلقت ليلى الباب، وشغّلت التسجيلات على الشاشة الكبيرة.

قال شاكر بعد صمت طويل:

— يعني... هم يتحدثون؟

هزّت ليلى رأسها.

— ليس بالكلمات كما نفهمها. لكن بالمعلومات. بالألم. بالرفض. ما تعلمته الحمراء في الشهور الماضية... انتقل.

تقدم ماجد خطوة نحو الشاشة، ثم توقف.

— ونحن كنا نراهم كل يوم. وكنا نصمت.

نظرت إليه ليلى نظرة طويلة.

— ليس أنتم فقط من صمت. أنا أيضًا. كنت أرى الأرقام وأكتب عنها في تقارير داخلية، وكانوا يردون عليّ بأن المشروع استراتيجي ولا يمكن إيقافه بسبب «فرضيات غير مثبتة». الآن لدينا جثة، ولدينا سلوك جماعي واضح. ولم يعد بإمكانهم التجاهل.

downstream

في المساء نفسه اجتمع ماجد وشاكر في غرفة المهجع القديمة التي كانا يتشاركانها مع سمير. السرير الفارغ ما زال كما هو. لم يجرؤ أحد على لمس أغراضه بعد.

جلس شاكر على حافة سريره وقال بصوت منخفض:

— أنا كنت أغضب منه طوال الوقت. كنت أقول له إنه سيدفع الثمن. والآن... دفعه. وأنا لا أشعر بأي انتصار.

هز ماجد رأسه ببطء.

— أنا كنت أنصحه. كنت أقول له إن هناك شيئًا يتغير. لكنه لم يسمع. وأنا... لم أفعل أكثر من الكلام. عندما ضربته على الشاطئ، وعندما حملته إلى الحوض، كنت واقفًا فقط.

صمت الاثنان. صوت البحر البعيد يصل خافتًا من النافذة المفتوحة.

ثم قال ماجد وهو ينظر إلى السقف:

— هل تظن أننا كنا جزءًا من الجريمة؟ لمجرد أننا كنا نستخدمهم؟

لم يرد شاكر فورًا. بعد دقيقة قال:

— لا أعرف ما هي الجريمة بالضبط. لكنني أعرف أننا عاملنا كائنات قادرة على التذكر... كأنها أدوات تُكسر إذا تعطلت. وهذا يكفي ليجعلني لا أنام.

في تلك الليلة، بينما كانت الأكاديمية تغرق في صمت الحراسة المشددة، حدث شيء في القاعة الغربية.

إحدى الحشرات الخضراء رفضت بشكل قاطع أن تُقاد إلى غرفة الفحص. عندما حاول الفنيون استخدام الصعقات الكهربائية الخفيفة، تحركت ثلاث حشرات أخرى من أماكنها وشكلت حاجزًا حولها. لم تهاجم. فقط وقفت. وأطلقت جميعها في الوقت نفسه إفرازًا كيميائيًا كثيفًا ملأ الهواء برائحة حادة غير مألوفة.

اضطر الفريق إلى التراجع.

في غرفة المراقبة كانت ليلى تراقب المشهد بعينين واسعتين. همست لنفسها، وصوتها بالكاد مسموع:

— انتهى زمن الطاعة العمياء.

الآن بدأ زمن الذاكرة.

الفصل الخامس عشر

الصراع

انفجر الصباح التالي بصوت صفارات الإنذار.

لم تكن صفارات التدريب المعتادة. كانت الصفارات الحمراء الحادة التي لم تُسمع داخل أسوار الأكاديمية منذ سنوات طويلة. خرج الطلبة والمشرفون إلى الممرات في فوضى صامتة في البداية، ثم تحولت إلى همسات سريعة مذعورة.

في القاعة الغربية كانت أربع حشرات قد اختفت.

الثقوب في الجدران الخارجية كانت واضحة: فتحات كبيرة ممزقة في الألواح المعدنية السميكة، كأن شيئًا ضخمًا قد دفع نفسه من الداخل إلى الخارج بقوة هائلة. على الأرض بقايا من الأغطية الواقية وتمزقات من الأجنحة. أما الحشرات الثماني المتبقية فكانت واقفة في دائرة ضيقة في وسط القاعة، متقاربة، قرون الاستشعار منتصبة، لا تسمح لأحد بالاقتراب.

وصل فريق الأمن المدجج خلال دقائق. الغازات المهدئة، والطلقات الكهربائية، والشباك المعدنية الثقيلة. حاولوا التقدم. في اللحظة التي أطلق فيها أول صاروخ غاز، تحركت إحدى الحشرات الزرقاء كالسهم وضربت الحاوية في الهواء قبل أن تنفجر. سقطت الحاوية فارغة على الأرض. ثم تقدمت الحشرات الثماني خطوة واحدة إلى الأمام كجسم واحد.

توقف الفريق.

من غرفة المراقبة كانت الدكتورة ليلى تصرخ في الجهاز:

— لا تطلقوا النار الحي! أي إصابة قاتلة الآن ستحوّل الأمر إلى حرب مفتوحة داخل الأسوار!

لكن الأوامر من القاهرة كانت قد وصلت مختلفة. المشروع يجب أن يُسيطر عليه فورًا. أي تمرد يجب أن يُسحق قبل أن يتسرب الخبر.

في الساحة الرئيسية انقسم البشر أمام أعين الجميع.

المدرب حسن كان يقف على الدرج المرتفع ويصيح أن الحشرات يجب تدميرها بالكامل، وأن ما حدث هو نتيجة تهاون في الانضباط. خلفه مجموعة من المشرفين والطلبة الأكبر سنًا يهزون رؤوسهم موافقين. في الجهة المقابلة وقفت ليلى وماجد

وشاكر ومجموعة صغيرة من الباحثين والطلبة الأصغر. كانت ليلى تقول بصوت مرتفع وواضح:

— أنتم لا تواجهون آلات معطلة. أنتم تواجهون كائنات طورت ذاكرة وقرارًا جماعيًا. إذا قتلتموهم الآن فأنتم لا تحلون المشكلة... أنتم تؤكدون لهم أن الإنسان لا يفهم سوى لغة الإبادة.

تعالت الأصوات. دفعات. شتائم. كاد الشجار يتحول إلى عراك بالأيدي أمام المبنى الرئيسي.

ثم جاءت المواجهة الحقيقية.

ثلاث من الحشرات الهاربة عادت فجأة من جهة البحر. ظهرت فوق السور الغربي وهي تحلق على ارتفاع منخفض، أجنحتها تحدث صوتًا عميقًا مخيفًا. لم تهاجم أحدًا في البداية. دارت فوق الساحة دورة كاملة كأنها تعرض قوتها، ثم هبطت واحدة منها — الخضراء الكبيرة — في المساحة المفتوحة بين الفريقين المتشاجرين من البشر.

سكت الجميع.

خفضت الحشرة رأسها قليلاً، وأصدرت من صدرها ذلك الصوت العميق الثابت الذي سمعوه أول مرة من الحمراء على الشاطئ. الصوت تردد في الساحة كطبل بعيد. خلفها هبطت الاثنتان الأخريان ووقفتا على الجانبين.

لم يطلق أحد النار.

في تلك اللحظة توقف الزمن داخل الأكاديمية. البشر منقسمون على أنفسهم، والحشرات الثلاثة واقفة في الوسط كأنها تنتظر قرارًا، والثماني الأخريات تراقب من بعيد عبر الفتحات الممزقة في جدران القاعة الغربية.

رفع ماجد صوته فجأة، وكان يرتجف لكنه مسموع:

— إذا أطلقتم النار الآن... فأنتم من يبدأ الحرب. وهم... فقط يدافعون عن حقهم في ألا يُعاملوا كأدوات مكسورة.

نظر المدرب حسن إليه نظرة ملؤها الاحتقار والخوف معًا. ثم رفع يده وأشار إلى فريق الأمن.

— سيطروا على الوضع. استخدموا القوة اللازمة.

انطلقت ثلاث قذائف كهربائية في الوقت نفسه.

هذه المرة لم تتفادَ الحشرات. تقدمت. الضربة الأولى من الطرف الأمامي للخضراء أطاحت بثلاثة رجال أمن دفعة واحدة. الزرقاء رفعت جناحيها وأحدثت موجة هواء عنيفة أسقطت المزيد. الصراخ اختلط بصوت الأجنحة وصوت القذائف.

خلال دقائق تحولت الساحة الرئيسية إلى فوضى كاملة. غاز، شرارات، أجساد بشرية تُلقى على الأرض، وأجساد لامعة ضخمة تتحرك بسرعة مذهلة رغم حجمها. لم تقتل الحشرات أحدًا عمدًا. كانت تضرب لتبعد، لتكسر التشكيل، لتفتح طريقًا.

ثم، بنفس المباغتة التي ظهرت بها، ارتفعت الثلاث إلى الهواء مجددًا واختفت فوق السور باتجاه البحر، تاركة وراءها ساحة مليئة بالدخان والرجال الملقين على الأرض... وانقسامًا لم يعد من الممكن إخفاؤه.

في غرفة المراقبة سقطت ليلى على الكرسي وهي تنظر إلى الشاشات. همست لنفسها، وصوتها مبحوح تمامًا:

— الآن لم يعد هناك طريق للعودة.

إما أن نعترف بهم... أو ندخل حربًا لن نخرج منها منتصرين.

الفصل السادس عشر

الحقيقة

بعد ساعات من المواجهة في الساحة الرئيسية أُعلن حالة الطوارئ القصوى داخل الأكاديمية. أُغلقت كل البوابات، وقُطعت الاتصالات الخارجية غير المشفرة، واستُدعي كبار المسؤولين من القاهرة بطائرات مروحية وصلت قبل الغروب. لكن الحقيقة لم تعد قابلة للحجب خلف الجدران.

في غرفة الاجتماعات السفلية المحصنة جلست الدكتورة ليلى عبد الرحمن أمام طاولة طويلة ممتلئة بالملفات القديمة. كان ماجد يقف قرب النافذة المغلقة، وشاكر يجلس في الزاوية صامتًا. على الشاشة الكبيرة عُرضت وثائق لم يكن من المفترض أن يراها أي طالب أو حتى معظم الباحثين.

قالت ليلى بصوت هادئ منهك وهي تمرر الصفحات على الشاشة:

— المشروع لم يكن أبدًا مجرد «تدريب رخيص لرواد الفضاء». هذا ما أخبرونا به جميعًا. الحقيقة أقدم وأعمق.

ظهرت على الشاشة تقارير تحمل تصنيفات أمنية عالية، تعود إلى أكثر من عشرين سنة. تجارب أولية على الحشرات في مواقع صحراوية نائية. تمويل مشترك بين وزارة الدفاع وهيئة الفضاء. أهداف مرحلية: كائنات قادرة على حمل معدات ثقيلة في بيئات منخفضة الأكسجين، ثم كائنات يمكن توجيهها عن بُعد في مهام استطلاع أو نقل داخل مناطق خطرة، وأخيرًا... إمكانية زرع أنظمة سيطرة عصبية مباشرة.

قال ماجد وهو ينظر إلى الشاشة بوجه شاحب:

— كانوا يريدون جنودًا رخيصين... أو بغالًا حية للحروب القادمة.

أومأت ليلى.

— بالضبط. الحجم كان المطلوب الأول. التحمل كان المطلوب الثاني. أما الذكاء... فقد كان الخطأ الذي لم يحسبوا حسابه. أو حسبوه، لكنهم ظنوا أنهم يستطيعون السيطرة عليه دائمًا بالهرمونات والعقاب والمكافأة.

صمتت لحظة، ثم أضافت:

— التقارير الداخلية التي كنت أرفعها منذ أشهر عن ارتفاع المعدلات العصبية وتكرار الأنماط رُفضت جميعها. قيل لي إنها «ضجيج بيولوجي طبيعي». الآن نعرف أن الضجيج كان صوت شيء يستيقظ.

جلس ماجد على الكرسي المقابل لها. بدا أصغر سنًا فجأة، وأكثر تعبًا.

— هل نمتلك الحق أصلًا في أن نصنع كائنًا قادرًا على الألم والذاكرة... ثم نعامله كأداة؟ حتى لو كان الهدف نبيلًا في البداية؟

نظرت ليلى إلى يديها اللتين كانتا ترتجفان قليلًا فوق الطاولة.

— هذا هو السؤال الذي هربنا منه جميعًا. العلم يعطينا القدرة على التغيير. لكنه لا يعطينا الحكمة التي تقول لنا متى يجب أن نتوقف. نحن زدنا الحجم، وقوّينا العضلات، وعدلنا تحمل الجاذبية والضغط... وفي الطريق لمسنا شيئًا أعمق: الإرادة. والآن هذه الإرادة تنظر إلينا وترفض أن تكون ملكًا لنا.

قال شاكر من الزاوية بصوت منخفض لأول مرة منذ ساعات:

— سمير كان يعتقد أنه يسيطر لأنه كان الأقوى. والأكاديمية كانت تعتقد أنها تسيطر لأنها تملك المختبرات والسلاح. والآن... من يسيطر على ماذا؟

ابتسمت ليلى ابتسامة حزينة قصيرة.

— لا أحد. وهذا هو الدرس الأقدم في التاريخ: كل من حاول امتلاك وعي آخر بالكامل... انتهى إلى مواجهة ما لا يمكن امتلاكه.

وقفت وذهبت إلى النافذة الصغيرة المصفحة. خارجها كان الظلام قد سقط تمامًا على الأكاديمية، وأضواء الحراسة تدور ببطء.

همست كأنها تحدث نفسها قبل أن تحدثهما:

— أمامنا خياران فقط الآن. إما أن نعترف بما صنعناه، ونبدأ حوارًا جديدًا مع كائنات لم نعد نملك حق معاملتها كممتلكات... أو نحاول إبادتها ونكتشف بعد فوات الأوان أننا خلقنا عدوًا يتذكر كل شيء، ويتعلم أسرع مما نتعلم نحن.

التفتت إلى ماجد وشاكر. عيناها واسعتان وواضحتان في ضوء الغرفة الباهت.

— السؤال لم يعد علميًا فقط. صار أخلاقيًا. وصار... وجوديًا. ماذا يعني أن تكون إنسانًا إذا كان أول ما تفعله عندما يستيقظ وعي آخر... هو أن تحاول إطفاءه؟

سكت الثلاثة.

خارج الجدران المحصنة كانت الحشرات الباقية في القاعة الغربية تتحرك في صمت، وقرون الاستشعار تتواصل في الظلام بلغة لم يعد البشر يتجاهلونها.

الفصل السابع عشر

النهاية

في الليلة السابعة بعد موت سمير وجدي اجتمع كل من بقي قادرًا على القرار داخل القاعة الكبرى للمؤتمرات. الأضواء كانت خافتة، والوجوه شاحبة، وال بحر البعيد يُسمع كأنه يتنهد خلف الجدران السميكة.

على الطاولة الطويلة جلس ممثلو القاهرة، والمدرب حسن، والدكتورة ليلى، وماجد، وشاكر، وعدد قليل من الباحثين الذين رفضوا الصمت. على الشاشات كانت صور الحشرات الباقية داخل القاعة الغربية، واقفة في دائرة ضيقة، لا تهاجم ولا تستسلم. وخارج الأسوار كانت التقارير تتحدث عن خمس حشرات أخرى شوهدت تحلق فوق البحر في تشكيل غريب، ثم اختفت باتجاه الأفق الغربي.

رفع المسؤول الأول من القاهرة ملفًا سميكًا وقال بصوت رسمي متعب:

— الخيارات أمامنا واضحة. التدمير الكامل للمشروع ولكل الأفراد المتبقية، أو النقل إلى منشأة عسكرية معزولة حيث يمكن إعادة برمجتها أو التخلص منها بهدوء. أي خيار ثالث... غير مطروح.

وقفت ليلى قبل أن ينهي جملته.

— الخيار الثالث هو الوحيد الذي يستحق أن يُطرح. الاعتراف. الاعتراف بأننا صنعنا كائنات تجاوزت التصميم. الاعتراف بأن الذاكرة والإرادة ليستا خللًا يستدعي الإبادة، بل نتيجة لم نكن مستعدين لها. نفتح حوارًا. نوقف كل أشكال العقاب والتوجيه القسري. نبدأ من الصفر... كطرفين لا كمالك ومملوك.

ضحك المدرب حسن ضحكة قصيرة مُرّة.

— حوار؟ مع حشرات؟ هذه رومانسية ستكلفنا المزيد من الجثث.

نظر إليه ماجد عبر الطاولة. كان صوته هادئًا هذه المرة، لكنه ثابت كالصخر:

— الجثة الأولى جاءت لأن أحدنا رفض أن يرى فيها أكثر من أداة. إذا كررنا الخطأ نفسه الآن... فلن تكون جثة واحدة.

صمت طويل. ثم تكلم المسؤول من القاهرة مجددًا، وهذه المرة كانت عيناه على ليلى:

— إذا رفضنا التدمير... وفشلت محاولاتكم في «الحوار»... هل تتحملين المسؤولية الكاملة؟

أجابت ليلى دون تردد:

— نعم. بشرط أن يتحمل الجميع مسؤولية ما صنعناه طوال عشرين سنة من الصمت.

في الساعات التالية لم يُتخذ قرار نهائي معلن. لكن الأمور تحركت بهدوء غريب.

أُوقفت كل محاولات السيطرة بالقوة. فُتحت أبواب القاعة الغربية تدريجيًا. انسحبت فرق الأمن إلى مسافة أبعد. وفي الفجر وقفت ليلى وماجد وشاكر وحدهم تقريبًا أمام المدخل الكبير.

لم تدخل الحشرات إلى الداخل. خرجت.

واحدة واحدة، ببطء، غير مهددة. الحمراء التي قتلت سمير كانت في المقدمة. الجناح المحترق بدا وكأنه بدأ يلتئم جزئيًا. توقفت على مسافة أمتار من الثلاثة، وخفضت رأسها قليلاً. أطلقت كمية صغيرة من المواد الكيميائية. رائحة غريبة، ليست عدوانية، لكنها حاسمة.

همست ليلى:

— إنها تقول إنهم لن يبقوا هنا.

أومأ ماجد. كان يفهم الآن بطريقة أعمق من الكلمات.

ارتفعت الحشرات واحدة بعد أخرى. الأجنحة العملاقة ضربت الهواء بصوت عميق مألوف، ثم اتجهت نحو البحر في تشكيل فضفاض. لم تنظر إلى الخلف. حلّقت على ارتفاع منخفض فوق الماء الذهبي تحت شمس الصباح، ثم ارتفعت تدريجيًا حتى صارت نقاطًا سوداء بعيدة... ثم اختفت.

لم يطلق أحد النار.

لم يحاول أحد اللحاق بها.

في الأيام التالية أُغلق مشروع الحشرات العملاقة رسميًا. نُقلت الملفات إلى الأرشيف السري، وصدرت بيانات عن «حادث تقني مؤسف أدى إلى إنهاء البرنامج». لكن داخل الأكاديمية كان الجميع يعرف الحقيقة.

ماجد لم يبقَ طويلاً. تقدّم بطلب انسحاب من البرنامج الفضائي كله. عندما سأله شاكر إلى أين سيذهب، ابتسم ابتسامة صغيرة متعبة وقال:

— إلى مكان أستطيع فيه أن أنظر إلى السماء... دون أن أفكر في كيفية السيطرة عليها.

أما ليلى فبقيت. رفضت العودة إلى القاهرة. حولت المختبر القديم إلى مركز بحثي صغير ومستقل لدراسة آثار الهندسة الوراثية على الوعي، تحت رقابة مشددة لكنها شفافة هذه المرة.

وفي إحدى الليالي المتأخرة، بينما كانت تكتب التقرير الأخير عن الأحداث، توقفت عند جملة واحدة وأعادت كتابتها ثلاث مرات قبل أن تتركها كما هي:

«نحن لم نغيّر الحجم فقط.

غيّرنا الحدود التي كنا نظنها ثابتة بين الأداة والكائن، بين الطاعة والقرار، بين الإنسان وما يصنعه بيده.

والحدود... بمجرد أن تُمسّ، نادرًا ما تعود إلى مكانها القديم.»

خارج النافذة كان البحر المتوسط يواصل حركته الأبدية تحت القمر.

وفي مكان ما فوقه، أو خلف الأفق، كانت أجنحة كبيرة تضرب الهواء في الظلام... وتتذكر.